مجلة كليّة

الدعوة الإسلامية

مجلّة إسلاميّة - ثقافيّة - جامعة - محكمة - تصدر سنويًا

العدد
السادس عشر
1999

1429 من ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم 1999 إفرنجي

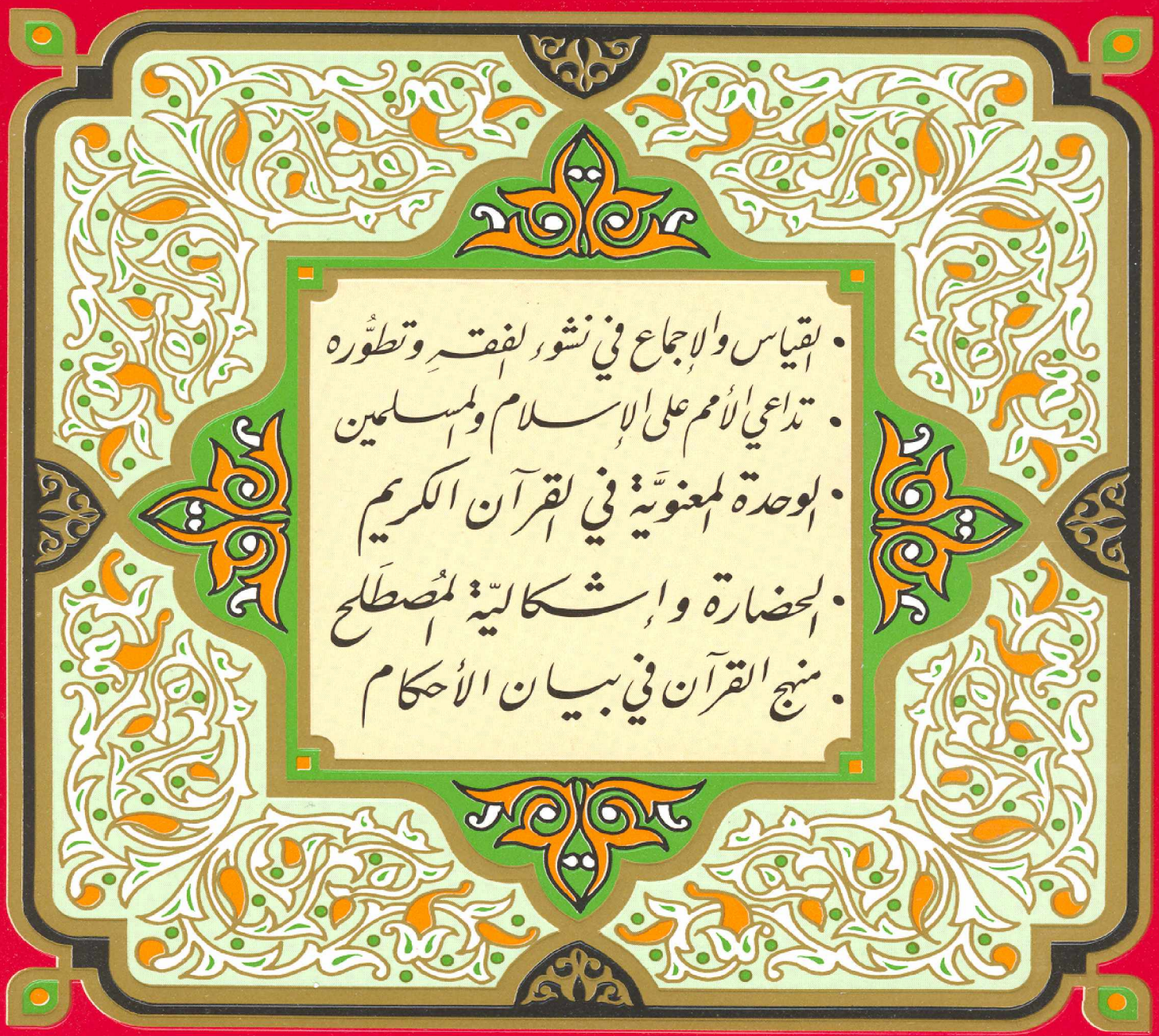

التطبيقات البلاغية في تفسير أبي السعود العمادي

د. جعفر صادق التميمي
كلية الآداب والعلوم
بني وليد - جامعة ناصر

نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين، فأثر تأثيراً بالغاً في نشأة البلاغة وتطورها. كان أمين الله على وحيه مفسراً لكتابه[1]، فلما توفاه الله تعالى نهض من بعده من اضطلع بهذه المهمة ممن أخلصوا في إسلامهم، وعكفوا على دراسة القرآن الكريم والبحث في سر إعجازه. من هذه الدراسات كتاب «معاني القرآن»[2] للفراء (ت207هـ)، وفيه فسّر مجموعة من الآيات الكريمة ماراً من خلال تفسيرها بالكثير من المباحث البلاغية، مثل: الحذف، والتكرار، والتعريض.

(1) سورة البقرة، الآية: 151 «كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا».

(2) معاني القرآن للفراء.

ثم كان البحث في المجاز بوصفه عنصراً من عناصر الخطاب، على يد أبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي (ت 209هـ) في كتابه «مجاز القرآن»[3]، وكلمة مجاز عنده تعني التفسير والتأويل، وهذا المعنى أعم من المعنى الذي حدده علماء البلاغة فيما بعد.

ويزداد استخدام المصطلح شيوعاً في القرن الثالث الهجري، ويستخدمه الجاحظ (ت 255هـ) في مقابل الحقيقة[4] في كتابيه «البيان والتبيين» و«الحيوان»، ويشير في رسائله[5] إلى أن القرآن معجز بنظمه.

ويأتي ابن قتيبة (ت276هـ) في كتابه «تأويل مشكل القرآن» ليبحث المجاز والاستعارة بمعناهما الاصطلاحي العام، ويبقى تداخل المفهومين مستمراً حتى منتصف القرن الخامس الهجري، ليتضح عند عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ).

ويسهم النحاة في تطوير البحث البلاغي[6]، وكذلك الفقهاء الذين استعانوا بالبلاغة في استنباط الأحكام الشرعية. كما أن معرفة ألفاظ القرآن الكريم، وفهم معانيه، هو الهدف الذي يرمي إليه المفسرون الذين أبرزوا ما في آيات الذكر الحكيم من جمال فني، بوصف البلاغة وسيلة لغاية شريفة، هي: استجلاء القيم الجمالية في كلام الله تعالى «إذ كان موجوداً في كلام العرب: الإيجاز، والاختصار، والاجتزاء بالإخفاء من الإظهار، وبالقلة من الإكثار في بعض الأحوال، واستعمال الإطالة، والإكثار، والترداد، والتكرار. . . . أن يكون ما في كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ من ذلك في كل ذلك له نظيراً، وله مثيلاً وشبيهاً، ونحن مبينو جميع ذلك في أماكنه»[7].

---

(3) مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى.

(4) التفكير البلاغي عند العرب/ 303.

(5) رسائل الجاحظ/ 102.

(6) ينظر النحو وكتب التفسير، أثر القراءات القرآنية في تطور الدرس النحوي، البلاغة تطور وتاريخ، في تاريخ البلاغة العربية.

(7) جامع البيان في تفسير للقرآن 1/ 6.

وبدأت تتميز في تاريخ التفسير مناهج في تناول المعنى القرآني، منها: المنهج اللغوي[8]، والمنهج التأويلي الباطني[9]، والمنهج القصصي، ومنهج التفسير بالمأثور[10]، ثم منهج مفسري المتكلمين[11] الذي يمثله الزمخشري (ت 538هـ)[12]. وهو يشير في مقدمة تفسيره الكشاف إلى أن علم التفسير ليس مباحاً لكل ذي علم أن يجيل فيه النظر، حتى وإن كان فقيهاً، أو متكلماً، أو راوية، أو واعظاً، أو نحوياً، أو لغوياً، ليس له أن يتصدى للتفسير إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما: علم المعاني، وعلم البيان»[13].

كان الزمخشري مثلاً رائعاً في تطبيق آراء عبد القاهر الجرجاني في نظرية النظم[14]، تلك النظرية التي أشار إليها الجاحظ في كتابه «نظم القرآن»[15]، ذلك أن «القرآن بنظمه الصادق البديع لا يقدر على مثله العباد»[16].

وقد اختار الخطابي (ت 388هـ)[17]، طريقة النظم والتأليف التي ذهب إليها الجاحظ في رسالته «بيان إعجاز القرآن»[18]، وكذلك فعل الباقلاني (ت403هـ) في كتابه «إعجاز القرآن»[19]، الذي اختار النظم طريقاً للإعجاز.

غير أن نظرية النظم نحا بها عبد القاهر منحى جديداً وقد توسع في شرحها وتطبيقاتها حتى إن كتابه «دلائل الإعجاز» صبَّ في نظرية النظم التي عرضها، وخلاصتها توخي معاني النحو فيما بين الكلم، وقد درس النحو على مستويين:

---

(8) مجاز القرآن مصدر سابق.
(9) يمثله التستري في تفسيره (ت283هـ).
(10) يمثله الطبري في تفسيره (ت 310هـ).
(11) منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه/ 284 ـ 298.
(12) الكشاف. بيروت: دار الكتاب العربي، 1987ف.
(13) المرجع نفسه/ المقدمة.
(14) دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة.
(15) لم يصلنا.
(16) الحيوان 4/ 85.
(17) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.
(18) المصدر نفسه.
(19) إعجاز القرآن للباقلاني/ 64.

أحدهما، معرفة الصحة والخطأ في العبارة، وثانيهما، مستوى الإبداع الفني الذي ينظر إلى العلاقة اللغوية بين المفردات. وهكذا يجعل الجرجاني من نظريته ما يعرف اليوم بعلم الأسلوب. لأنه ذكر أن البلاغة واللغة والنحو تصب في هذه النظرية، فاللغة عنده شبكة مترابطة من العلاقات «من أعجب العجب أن يزعم زاعم أنه يطلب المزية في النظم، ثم لا يطلبها في معاني النحو وأحكامه التي النظم عبارة عن توخيها فيما بين الكلم»[20]، «إن هذه المعاني التي هي الاستعارة، والكناية، والتمثيل، وسائر ضروب المجاز من بعدها من مقتضيات النظم»[21]. كما أفاد أبو عبد الله محمد بن عمر التميمي الرازي (ت 606هـ) من البلاغة في تفسيره «مفاتيح الغيب»[22].

لقد طبق أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي (ت982هـ) في تفسيره «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم» فكرة النظم التي استوى عودها عند الجرجاني، معتمداً في تفسيره على «الكشاف» للزمخشري، و«أنوار التنزيل» للبيضاوي، وغيرهما ممن تقدمه، وأبدى وجوه المناسبات بين الآيات، وعرض لذكر القراءات، وذكر قليلاً من المسائل الفقهية.

يحاول البحث استقصاء التطبيقات البلاغية في تفسير أبي السعود، كما قسمها المتأخرون، فكان المقام الأول لعلم المعاني الذي بقواعده «تعرف أحوال اللفظ العربي التي يطابق بها مقتضى الحال»[23]. ومن هذه التطبيقات:

أحوال الإسناد الخبري:

الخبر في مفهوم البلاغيين كلام يحتمل الصدق والكذب لذاته، وله غرضان حقيقيان، أولهما: فائدة الخبر، وهو كون المخاطب خالي الذهن

---

(20) دلائل الإعجاز/ 392.

(21) المصدر نفسه/ 393.

(22) مفاتيح الغيب للرازي.

(23) معجم البلاغة العربية 2/ 583.

من الخبر وبالإلقاء يكون قد اكتسب فائدة العلم به. والثاني: لازم الفائدة، وهو أن المتكلم يريد إخفاء الخبر عن السامع ويشعره المتلقي بأسلوب غير مباشر بأنه يعلم به. وفي اللغة العربية أدوات شتى تجعل التركيب مؤكد المعنى.

ذكر أبو السعود في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾[24]، وألا تزاد للتنبيه، وتدل عندئذٍ على تحقق ما بعدها، ومن هنا تأتي دلالتها على معنى التأكيد قال «وصدرت الجملة بحرفي التأكيد، ألا المنبهة على تحقق ما بعدها، فإن الهمزة الإنكارية الدالة على النفي تفيد تحقيق الإثبات قطعاً كما في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾، ولذلك لا يكاد يقع ما بعدها من الجملة إلا مصدرة بما يتلقى به القسم وأختها التي هي إما من طلائع القسم»[25] وكذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[26] يقول: «وفي إيثار الجملة الاسمية على الفعلية المناسبة لما قبلها، وتصديرها بحرف التنبيه والتأكيد من الدلالة على تحقيق مضمونها وتقرره ما لا يخفى»[27].

وهناك من التراكيب نوع طبيعته تجعله مؤكداً، وإن لم يكن فيه أداة. مثل أن تكون الجملة أقوى تأكيداً إذا كان المسند فيها خبراً فعلياً. وقد ذكر أبو السعود في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾[28] وفيه تقييد البعث بعد الموت لزيادة التأكيد على أنه موت حقيقي ما نصه «بتلك الصاعقة قيَّد البعث به لما أنه قد يكون من الإغماء، وقد يكون من النوم كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ﴾»[29] وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[30]، وذكر مفسدين يكسو النهي عن الفساد قوة قال: «العثي أشد الفساد فقيل لهم لا تتمادوا

---

(24) سورة البقرة، الآية: 12.
(25) تفسير أبي السعود 1/ 54.
(26) سورة البقرة، الآية: 214.
(27) تفسير أبي السعود 1/ 252.
(28) سورة البقرة، الآية: 56.
(29) تفسير أبي السعود 1/ 126.
(30) سورة البقرة، الآية: 60.

في الفساد حال كونكم مفسدين، وقيل إنما قيد به لأن العثي في الأصل مطلق التعدي وإن غلب في الفساد، وقد يكون في غير الفساد»[31].

ويقول البلاغيون قد يكون للخبر أغراض أخرى ليست فائدة الخبر، ولا لازم الخبر، تفهم من سياق الكلام وقرائن الأحوال. وقد ذكر أبو السعود في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾[32] بأن يتربصن «خبر في معنى الأمر مفيد للتأكيد بإشعاره بأن المأمور به مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى الإتيان به فكأنهن امتثلن بالأمر بالتربص فتخبر به موجوداً متحققاً وبناؤه على المبتدأ مفيد لزيادة التأكيد»[33] كما ذكر في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾[34] ما نصه «على معنى لا يكونَنَّ رفث ولا فسوق»[35].

أحوال المسند والمسند إليه:

يقول عبد القاهر الجرجاني في الحذف: «إنه باب دقيق المسلك لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه السحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفاده وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق»[36]، وقد ذكر أبو السعود في قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾[37] ما نصه «أي في اللعنة أو في النار على أنها أضمرت من غير ذكر تفخيماً لشأنها وتهويلاً لأمرها»[38].

ويقول علماء البلاغة إن المسند إليه يعرف بالاسم الموصول لأغراض منها، استهجان التصريح بذكر المسند إليه ومنها، التفخيم والتهويل. وقد ذكر العمادي قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾[39] فقال: «وإنما وضع الموصول

---

(31) تفسير أبي السعود 1/ 129.
(32) سورة البقرة، الآية: 228.
(33) تفسير أبي السعود 1/ 263.
(34) سورة البقرة، الآية: 196.
(35) تفسير أبي السعود 1/ 244.
(36) دلائل الإعجاز/ 111.
(37) سورة البقرة، الآية: 161.
(38) تفسير أبي السعود 1/ 217.
(39) سورة البقرة، الآية: 59.

موضع الضمير العائد على الموصول الأول للتعليل والمبالغة في الذم والتقريع وللتصريح بأنهم بما فعلوا قدظلموا أنفسهم بتعريضها لسخط الله تعالى»[40].

وفي موضوع إيثار الجملة الاسمية في الخبر وأنها أبلغ من الجملة الفعلية لأن فيها تجدداً، قال العمادي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾[41] ما نصه «وإيثار الجملة الاسمية لإفادة دوام النفي واستمراره أي لا يمهلون ولا يؤجلون»[42].

وفي باب تقييد المسند بمسند إليه ذكر العمادي قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[43] فقال: «وفائدة التقييد مع أن قتل الأنبياء يستحيل أن يكون بحق الإيذان بأن ذلك عندهم أيضاً بغير الحق»[44] أي لزيادة التشنيع. أما في قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[45] قال: «وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتربية المهابة وإدخال الروعة»[46].

وفيما يخص الإشارة ذكر أبو السعود قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[47] فقال «ذلك: ذا اسم إشارة، واللام عماد جيء به للدلالة على بعد المشار إليه والكاف للخطاب، والمشار إليه هو المسمى فإنه منزل منزلة المشاهد بالحس البصري وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان بعلو شأنه»[48]، وفي قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾[49]، قال: «استئناف فيه رمز إلى أنه عليه الصلاة والسلام من أفاضل الرسل العظام إثر بيان كونه من جملتهم، والإشارة إلى الجماعة الذين من جملتهم النبي، فاللام في المآل للاستغراق وما

---

(40) تفسير أبي السعود 1/ 128.
(41) سورة البقرة، الآية: 161.
(42) تفسير أبي السعود 1/ 217.
(43) سورة البقرة، الآية: 60.
(44) تفسير أبي السعود 1/ 129.
(45) سورة البقرة، الآية: 196.
(46) تفسير أبي السعود 1/ 244.
(47) سورة البقرة، الآية: 2.
(48) تفسير أبي السعود 1/ 27.
(49) سورة البقرة، الآية: 252.

فيه من معنى البعد للإيذان بعلوّ طبقتهم وبعد منزلتهم»[50].

ينكَّر المسند لإرادة عدم حصر المسند في المسند إليه، وللتفخيم والتعظيم، وللتحقير، كما ينكر المسند إليه للدلالة على فرد غير معين، ونوع خاص، وللتعظيم والتحقير، وللتكثير والتقليل، وأن يمنع من التصريف مانع، أو أن يقصد إخفاءه على المخاطب[51].

ذكر أبو السعود في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾[52]، التنكير فقال: «وإيراد يوماً منكراً مع تنكير النفس للتعميم والإقناط الكلي»[53]، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ﴾[54] قال «بقليل من ذلك»[55] وفي قوله تعالى: ﴿فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾[56] قال: «وتنكير حرب للتفخيم ومن متعلقه بمحذوف وقع صفة لها مؤكدة لفخامتها أي بنوع من الحرب عظيم لا يقادر قدره، كائن من عند الله ورسوله»[57]. وفي قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ﴾[58]، قال: «هو يوم القيامة وتنكيره للتفخيم والتهويل، وتعليق الاتقاء به للمبالغة في التحذير عما فيه من الشدائد والأهوال»[59].

وضع الظاهر موضع الضمير:

ذكر العمادي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ﴾[60]، «إن تكرير الحق لزيادة تقبيح المنهي عنه إذ في التصريح باسم الحق ما ليس في

(50) تفسير أبي السعود 1/ 285.
(51) معجم البلاغة العربية 2/ 896 ـ 898.
(52) سورة البقرة، الآية: 48.
(53) تفسير أبي السعود 1/ 124.
(54) سورة البقرة، الآية: 100.
(55) تفسير أبي السعود 1/ 161.
(56) سورة البقرة، الآية: 229.
(57) تفسير أبي السعود 1/ 264.
(58) سورة البقرة، الآية: 279.
(59) تفسير أبي السعود 1/ 310.
(60) سورة البقرة، الآية: 151.

ضميره»[61] وذكر في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾[62] ما يلي «أي باتخاذ الأنداد ووضعها موضع المعبود»[63] فوضع الظاهر موضع الضمير هدف إلى إحضار الصورة.

أحوال متعلقات الفعل:

ويقصد بالفعل، فعل الشرط، المحصور في الأدوات إنْ، وإذا، ولو وتنقل إنْ الشرط من الماضي إلى المستقبل ولا تكون إلا في الشرط غير المقطوع بحدوثه. وقد ذكر أبو السعود في تفسير قوله تعالى: ﴿إِن كُنتَ تُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾[64] ما يلي «جواب الشرط محذوف يدل عليه ما قبله دلالة واضحة أي فلا يجترئن على ذلك، فإن قضية الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر الذي يقع فيه الجزاء والعقوبة منافية له قطعاً»[65].

القصـــر:

أسلوب القصر من مؤكدات الجملة الخبرية، وهو في عرف البلاغيين «تخصيص شيء بشيء»[66] ومن فوائد أسلوب القصر أنه يجعل الجملة الواحدة مقام جملتين مع الإيجاز، ويمكّن الكلام ويقرره في الذهن[67].

أشار أبو السعود في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[68] إلى أسلوب القصر فقال: «أي مقصورون على الإصلاح المحض بحيث لا يتعلق به شائبة الإفساد والفساد، مشيرين بكلمة إنما إلى أن ذلك من الوضوح بحيث لا ينبغي أن يرتاب فيه»[69].

---

(61) تفسير أبي السعود 1/ 212.
(62) سورة البقرة، الآية: 164.
(63) تفسير أبي السعود 1/ 218.
(64) سورة البقرة، الآية: 228.
(65) تفسير أبي السعود 1/ 263.
(66) معجم البلاغة العربية 2/ 709.
(67) البلاغة العربية لبكري الشيخ أمين/ 175.
(68) سورة البقرة، الآية: 15.
(69) تفسير أبي السعود 1/ 53.

الإنشاء الطلبي

الاستفهام:

الاستفهام من الإنشاء الطلبي ومعناه طلب الفهم[70]، وإدراك المقصود منه ليس له حد قاطع، إذقد يحمل إلى جانب معناه الأصلي معاني أخرى عدَّد البلاغيون منها على سبيل التمثيل، التوبيخ، مثل قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾[71] قال أبو السعود: «تجريد للخطاب وتوجيه له إلى بعضهم بعد توجيهه إلى الكل، والهمزة فيها تقرير مع توبيخ وتعجيب»[72]. وقد يخرج الاستفهام إلى التعجب نحو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ﴾[73] قال العمادي: «ألم تر تقرير لمن سمع بقصتهم من أهل الكتاب وأرباب الأخبار، وتعجيب من شأنهم البديع... فإن هذا الكلام قد جرى مجرى المثل في مقام التعجيب»[74].

الأمـــر:

هو طلب الفعل على وجه الاستعلاء، وقد يخرج عن معناه الأصلي إلى معانٍ أخرى تفهم من السياق وقرائن الأحوال، منها، التعجيز، وهو طلب أمر لا يقدر عليه المخاطب ويدعي أنه يقدر عليه، لإظهار عجزه تحدياً له.

وقد ذكر أبو السعود ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾[75] فقال «تبكيتاً لهم وإظهاراً لعجزهم عن إقامة ما علقوا به رجاءهم من أمر الخلافة»[76].

وقد يخرج الأمر إلى الإهانة والتحقير، وتكون في مقام الإقلال من شأن

---

(70) معجم البلاغة العربية 2/ 664.
(71) سورة البقرة، الآية: 44.
(72) تفسير أبي السعود 1/ 120.
(73) سورة البقرة، الآية: 243.
(74) تفسير أبي السعود 1/ 139.
(75) سورة البقرة، الآية: 31.
(76) تفسير أبي السعود 1/ 105.

المخاطب، نحو قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[77] قال العمادي: «أي جامعين بين صورة القردة والخسوء وهو الطرد والصغار، على أن خاسئين نعت لقردة وقيل حال... والمراد بالأمر بيان سرعة التكوين وأنهم صاروا كذلك كما أراده الله»[78].

الوصل والفصل:

ويدعى كمال الاتصال والانقطاع في كتب البلاغة. وقد ذكر أبو السعود في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ﴾[79] ما يلي «نصبٌ على الاختصاص غيَّر سبكه عما قبله تنبيهاً على فضيلة الصبر ومزيته وهو في الحقيقة معطوف على ما قبله قال أبو علي إذا ذكرت صفات للمدح أو الذم فخولف في بعضها الإعراب فقد خولف للافتنان ويسمى ذلك قطعاً، لأن تغيير المألوف يدل على زيادة ترغيب في استماع المذكور ومزيدة اهتمام بشأنه كما مر في صدور السور»[80]. وفي تفسير قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[81] قال أبو السعود «أي يجازيهم على استهزائهم» سمي جزاؤه باسمه كما سمي جزاء السيئة سيئة إما للمشاكلة في اللفظ أو المقارنة في الوجود»[82].

الإيجـــاز:

ومعناه في اصطلاح علماء البيان اندراج المعاني المتكاثرة تحت اللفظ القليل[83]. والإيجاز قسمان: إيجاز حذف «ويكون بحذف ما لا يخل بالمعنى ولا ينقص من البلاغة، ولا بد من الدلالة على المحذوف، ويظهر المحذوف من جهة الإعراب ومن جهة المعنى، ويكون بحذف الجمل وبحذف

---

(77) سورة البقرة، الآية: 65.
(78) تفسير أبي السعود 1/ 139.
(79) سورة البقرة، الآية: 177.
(80) تفسير أبي السعود 1/ 229.
(81) سورة البقرة، الآية: 14.
(82) تفسير أبي السعود 1/ 56.
(83) معجم البلاغة العربية 2/ 924.

المفردات»[84]. وإيجاز قصر «وهو ما كان لفظه قصيراً يسيراً ومعناه كثيراً دون حذف»[85].

لقد أورد العمادي قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾[86]، وفيه مجاز بالحذف والتقدير فقال «الفاء فصيحة عاطفة للجملة الشرطية على محذوف يقتضيه المقام وينسحب عليه الكلام للإيذان بتقرره وغناه عن الذكر وللإشعار بتحققه في أسرع ما يكون. . . وإظهار الأسماء في موقع الإضمار لأظهار كمال العناية بشأنها والإيذان بأنه عليه السلام أنبأهم بها على وجه التفصيل دون الإجمال والمعنى فأنبأهم بأسمائهم مفصّلة»[87] وقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾[88] قال العمادي: «كلام عدل به عن نهج الخطاب السابق للإيذان باقتضاء جنايات المخاطبين للإعراض عنهم وتعداد قبائحهم على طريق المباءة معطوف على مضمر قد حذف للإيجاز والإشعار بأنه أمر محقق غني عن التصريح به»[89].

الإطنـــاب:

هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة جديدة من غير ترديد[90]. وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾[91] قال العمادي «وإيراد ما لا يعلمون بعنوان الغيب مضافاً إلى السموات والأرض للمبالغة في بيان كمال شمول علمه المحيط وغاية سعته مع الإيذان بأن ما ظهر من عجزهم وعلم آدم عليه السلام من الأمور المتعلقة بأهل

(84) المصدر نفسه 1/ 177.
(85) المصدر نفسه 2/ 712.
(86) سورة البقرة، الآية: 33.
(87) تفسير أبي السعود 1/ 107.
(88) سورة البقرة، الآية: 57.
(89) تفسير أبي السعود 1/ 127.
(90) معجم البلاغة العربية 1/ 476.
(91) سورة البقرة، الآية: 30.

السموات وأهل الأرض»[92]. وفي قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾[93] قال العمادي «صفة أخرى مترتبة في الوجود على التلاوة وإنما وسط بينهما التزكية التي هي عبارة عن تكميل النفس بحسب القوة العملية وتهذيبها المتفرع على تكميلها بحسب القوة النظرية الحاصل بالتعلم المترتب على التلاوة، للإيذان بأن كلاً من الأمور المترتبة نعمة جليلة على حيالها مستوجبة للشكر، فلو روعي ترتيب الوجود كما في قوله تعالى: ﴿وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ لتبادر إلى الفهم كون الكل نعمة واحدة كما مر نظيره في قصة البقرة، وهو السر في التعبير عن القرآن تارة بالآيات، وأخرى بالكتاب والحكمة، رمزاً إلى أنه باعتبار كل عنوان نعمة على حدة، ولا يقدح فيه شمول الحكمة لما في تضاعيف الأحاديث الشريفة من الشرائع، وقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ صريح في ذلك فإن الموصول مع كونه عبارة عن الكتاب والحكمة قطعاً قد عطف تعليمه على تعليمهما وما ذلك إلا لتفصيل فنون النعم في مقام يقتضيه»[94].

أما البيان عند البلاغيين فهو «علمٌ يعرف به إيراد المعنى الواحد بتراكيب مختلفة في وضوح الدلالة على المعنى المراد بأن تكون دلالة بعضها أجلى من بعض»[95]. وقد حصر البلاغيون أصول علم البيان في أربعة هي أصل واحد وسيلة وهو التشبيه، وأصلان ذاتيان هما المجاز والكناية، وأصل واحد جزء من أصل وهو الاستعارة.

التشـــبيه:

له تعريفات كثيرة منها «اشتراك الشيئين في صفة أو أكثر»[96]، وهو «أن

---

(92) تفسير أبي السعود 1/ 103.

(93) سورة البقرة، الآية: 151.

(94) تفسير أبي السعود 1/ 212.

(95) معجم البلاغة العربية 1/ 111.

(96) المصدر نفسه 1/ 320.

يثبت لهذا معنى من معاني ذاك أو حكماً من أحكامه»[97]، و«التشبيه مستدع طرفين، مشبهاً ومشبهاً به، واشتراكاً بينهما من وجه وافتراقاً من آخر»[98].

برع أبو السعود العمادي في تحليل الصور التشبيهية على نحو من الدقة والعمق الذي يجلّي فيه عمق الدلالة في ضوء السياق اللغوي وترابط المفردات في آي الذكر الحكيم مثل قوله تعالى: ﴿فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[99]، قال: «أي هي في القسوة مثل الحجارة أو زائدة عليها فيها، أو أنها مثلها أو مثل ما هو أشد منها قسوة كالحديد، والفاء إما لتفريع مشابهتها لها على ما ذكر من القساوة تفريع التشبيه على بيان وجه الشبه في قولك احمرَّ خدّه فهو كالورد»[100]. وفي قوله تعالى: ﴿كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾[101] قال العمادي: «مصدر تشبيهي أي نعت لمصدر مؤكد للفعل السابق فالمعنى يحبونهم حباً كائناً كحبهم لله تعالى أي يسوُّون بينه تعالى وبينهم في الطاعة والتعظيم، وقيل فاعل الحب المذكور وهم المؤمنون فالمعنى كائناً كحب المؤمنين له تعالى فلا بد من اعتبار المشابهة بينهما في أصل الحب لا في وصفه»[102].

وذكر أبو السعود التشبيه المقلوب وهو جعل المشبه مشبهاً به بادعاء أن وجه الشبه فيه أقوى وأظهر، وذلك في قوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾[103] فقال: «أي ذلك العقاب بسبب أنهم نظموا الربا والبيع في سلك واحد لإفضائهما إلى الربح، فاستحلوه استحلاله، وقالوا يجوز بيع درهم بدرهمين كما يجوز بيع ما قيمته درهم بدرهمين، بل جعلوا الربا أصلاً في الحِلّ وقاسوا به البيع مع وضوح الفرق بينهما»[104]

---

(97) أسرار البلاغة/ 93.

(98) مفتاح العلوم/ 332.

(99) سورة البقرة، الآية: 74.

(100) تفسير أبي السعود 1/ 139.

(101) سورة البقرة، الآية: 164.

(102) تفسير أبي السعود 1/ 218.

(103) سورة البقرة، الآية: 274.

(104) تفسير أبي السعود 1/ 308.

وذكر أبو السعود التشبيه البليغ وهو ما حذفت فيه أداة التشبيه ووجه الشبه، ومنه أن يكون المشبه به مصدراً مبيناً للنوع، ومنه إضافة المشبه للمشبه به في تفسير قوله تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾[105] قال: «والصمم آفة مانعة من السماع، والبكم الخرس، والعمى عدم البصر عما من شأنه أن يبصر، وصفوا بذلك مع سلامة مشاعرهم المعدودة لما أنهم حيث سدوا مسامعهم عن الإصاخة لما يتلى عليهم من الآيات صاروا كفاقدي تلك المشاعر بالكلية، وهذا عند مفلقي سحر البيان من باب التمثيل البليغ المؤسس على تناسي التشبيه»[106].

وذكر العمادي التشبيه التمثيلي وهو ما كان وجه الشبه فيه صورة منتزعة من متعدد أمرين أو أمور، ولا يشترط البلاغيون فيه غير تركيب الصورة، وكلما كانت عناصر الصورة أكثر كان التشبيه أبعد وأبلغ. وفي تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ﴾[107] قال: «إن التمثيل كما مر ليس إلا إبراز المعنى المقصود في معرض الأمر المشهود وتحلية المعقول بحلية المحسوس وتصوير أبواب المعاني بهيئة المأنوس»[108]. وفي تفسير قوله تعالى: ﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[109]. قال: «تمثيل لحالهم إثر تمثيل ليعم البيان منها كل دقيق وجليل، ويوفي حقها من التفظيع والتهويل، لما أن كل كلام له حظ من البلاغة وقسط من الجزالة والبراءة لا بد أن يوفى فيه حق كل من مقامي الإطناب والإيجاز، فما ظنك بما في ذروة الإعجاز من التنزيل الجليل، ولقد نعى عليهم في هذا التمثيل تفاصيل جناياتهم»[110].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا﴾[111] قال: «فإن التمثيل ألطف ذريعة إلى تسخير الوهم للعقل واستنزاله له من مقام الاستعصاء

---

(105) سورة البقرة، الآية: 18.

(106) تفسير أبي السعود 1/ 63.

(107) سورة البقرة، الآية: 28.

(108) تفسير أبي السعود 1/ 97.

(109) سورة البقرة، الآية: 19.

(110) تفسير أبي السعود 1/ 67.

(111) سورة البقرة، الآية: 17.

عليه، وأقوى وسيلة إلى تفهيم الجاهل الغبي، وقمع سورة الجامح الأبي، كيف لا وهو رفع الحجاب عن وجوه المعقولات الخفية، وإبراز لها في معرض المحسوسات الجلية، وإبداء للمنكر في صورة المعروف، وإظهار للوحشي في هيئة المألوف»[112].

المجـــاز:

هو ما أريد به غير المعنى الموضوع له في أصل اللغة[113]، وهو عند البلاغيين قسمان: أولهما عقلي ويكون في الإسناد ونسبة الشيء إلى غير ما هو له ويسمى المجاز الحكمي، والإسناد المجازي، ولا يكون إلا في التركيب.

ذكر أبو السعود في تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾[114] المجاز العقلي فقال: «مما تنبت الأرض إسناد مجازي بإقامة القابل مقام الفاعل»[115]، وفي قوله تعالى: ﴿أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾[116]قال: «وإسناد الإنبات إلى الحبة مجازي كإسناده إلى الأرض والربيع، وهذا التمثيل تصوير للأضعاف كأنها حاضرة بين يدي الناظر»[117].

وثانيهما المجاز اللغوي ويكون في نقل الألفاظ عن حقائقها اللغوية إلى معانٍ أخرى بينها صلة ومناسبة، ويكون في المفرد كما يكون في المركب المستعمل في غير ما وضع له، وهذا النوع من المجاز قسمان: قسم لا تكون فيه العلاقة هي المشابهة ويسمى المجاز المرسل. وعلاقاته كثيرة منها، الجزئية، والكلية، والمسببية، والسببية، واعتبار ما كان وما يكون، والمحلية، والحالية، والآلية، والمجاورة[118].

---

(112) تفسير أبي السعود 1/ 62.

(113) معجم البلاغة العربية 1/ 170.

(114) سورة البقرة، الآية: 61.

(115) تفسير أبي السعود 1/ 130.

(116) سورة البقرة، الآية: 261.

(117) تفسير أبي السعود 1/ 299.

(118) معجم البلاغة العربية/ 170، 304.

ذكر أبو السعود تسمية الكل باسم الجزء من المجاز المرسل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[119] فقال: «أي في جماعتهم، فإن صلاة الجماعة تفضل على صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة، لما فيها من تظاهر النفوس في المناجاة، وعبر عن الصلاة بالركوع احترازاً عن صلاة اليهود، وقيل الركوع الخضوع والانقياد لما يلزمهم الشارع»[120].

كما ذكر إطلاق اسم المحل على الحال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾[121] فقال: «بيان لأشدِّيَّة قلوبهم من الحجارة في القسوة وعدم التأثر واستحالة صدور الخير منها، يعني أن الحجارة ربما تتأثر حيث يكون منها ما يتفجر منه المياه العظيمة»[122]. وذكر تفسير قوله تعالى: ﴿يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾[123] فقال: «وإيثار الجعل المنبيء عن دوام الملابسة واستمرار الاستقرار على الإدخال المقيد لمجرد الانتقال من الخارج إلى الداخل، للمبالغة في بيان سد المسامع باعتبار الزمان، كما أن إيراد الأصابع بدل الأنامل للإشباع في بيان سدها باعتبار الذات، كأنهم سدوها بجملتها لا بأناملها فَحَسْبُ كما هو المعتاد. ويجوز أن يكون هذا إيماء إلى كمال حيرتهم وفرط دهشتهم وبلوغهم إلى حيث لا يهتدون إلى استعمال الجوارح على النهج المعتاد، وكذا الحال في عدم تعيين الأصبع المعتاد أعني السبابة، وقيل ذلك لرعاية الأدب»[124].

الاستعارة:

هي النوع الثاني من المجاز اللغوي، تكون العلاقة فيه بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي المشابهة. وقد تعددت تعريفاتها، فمنهم من قال: هي نقل

---

(119) سورة البقرة، الآية: 42.
(120) تفسير أبي السعود 1/ 119.
(121) سورة البقرة، الآية: 74.
(122) تفسير أبي السعود 1/ 139.
(123) سورة البقرة، الآية: 19.
(124) تفسير أبي السعود 1/ 65.

العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره، لغرض شرح المعنى وفضل الإبانة عنه أو تأكيده أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه[125]. وهي عند عبد القاهر الجرجاني أن تريد تشبيه الشيء بالشيء فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره، وتجيء إلى اسم المشبه به فتعيره المشبه وتجريه عليه[126].

وتنقسم الاستعارة من حيث ذكر أحد طرفيها إلى تصريحية ومكنية، وباعتبار لفظها إلى أصلية وتبعية، وتكون الاستعارة مفردة، وقد تكون مركبة، وتسمى في حالة التركيب استعارة تمثيلية وهي مجاز مركب علاقته المشابهة[127].

ذكر أبو السعود في تفسير قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[128] ما يلي: «والختم على الشيء الاستيثاق منه بضرب الخاتم عليه صيانة، أو لما فيه من التعرض له كما في البيت الفارغ والكيس المملوء والأول هو الأنسب بالمقام، إذ ليس المراد به صيانة ما في قلوبهم بل إحداث حالة تجعلها بسبب تماديهم في الغيّ وانهماكهم في التقليد وإعراضهم عن منهاج النظر الصحيح بحيث لا يؤثر فيها الإنذار ولا ينفذ فيها الحق أصلاً، إما على طريقة الاستعارة التبعية بأن يشبه ذلك بضرب الخاتم على نحو أبواب المنازل الخالية المبنى للسكن، تشبيه معقول بمحسوس بجامع عقلي هو الاشتمال على منع القابل عما من شأنه وحقه أن يقبله، ويستعار الختم ثم يشتق منه صياغة الماضي، وإمّا على طريقة التمثيل بأن يشبه الهيئة المنتزعة من قلوبهم وقد فعل بها ما فعل من إحداث تلك الحالة المانعة من أن يصل إليها ما خلقت هي لأجله من الأمور الدينية النافعة، وحيل بينها وبينه بالمرة بهيئة منتزعة من محال معدة لحلول ما يحلها حلولاً مستتبعاً لمصالح مهمة، وقد منع من ذلك بالختم عليها وحيل بينها وبين ما أعدت لأجله

(125) كتاب الصناعتين/ 268.

(126) أسرار البلاغة/ 93.

(127) معجم البلاغة العربية 598.

(128) سورة البقرة، الآية: 7.

بالكلية ثم يستعار لها ما يدل على الهيئة المشبه بها فيكون كل من طرفي التشبيه مركباً من أمور عدة»[129].

وذكر العمادي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾[130] فقال: «والقسوة عبارة عن الغلظ والجفاء والصلابة كما في الحجر استعيرت لنبو قلوبهم من التأثر بالعظات»[131]. وفي تفسير قوله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾[132] قال: «والخدع أن يوهم صاحبه خلاف ما يريد به من المكروه ليوقعه فيه من حيث لا يحتسب، أو يوهمه المساعدة على ما يريد هو ليغتر بذلك فينجو منه بسهولة، وكلا المعنيين مناسب للمقام، إما على طريق الاستعارة والتمثيل لإفادة كمال شناعة جناياتهم، أي يعاملون معاملة الخادعين وإما على المجاز العقلي»[133].

الكنايـة:

هي ترك التصريح بالشيء إلى مساويه في اللزوم لينتقل منه إلى الملزوم، أو، هي ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه لينتقل المعنى من المذكور إلى المتروك. وقد تكون كناية عن صفة، أو موصوف، أو نسبة[134].

ذكر أبو السعود في تفسير قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾[135] ما نصه «والرفث كناية عن الجماع لأنه لا يكاد يخلو من رفث وهو الإفصاح بما يجب أن يكنى عنه، وعُدّي بإلى لتضمُّنه معنى الإفضاء والإنهاء، وإيثاره ها هنا لاستقباح ما ارتكبوه»[136].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾[137] قال: «أي لا

---

(129) تفسير أبي السعود 1/ 45.
(130) سورة البقرة، الآية: 74.
(131) تفسير أبي السعود 1/ 139.
(132) سورة البقرة، الآية: 8.
(133) تفسير أبي السعود 1/ 48.
(134) معجم البلاغة العربية 2/ 780.
(135) سورة البقرة، الآية: 186.
(136) تفسير أبي السعود 1/ 237.
(137) سورة البقرة، الآية: 196.

تحلوا حتى تعلموا أن الهدي المبعوث إلى الحرم بلغ مكانه الذي يجب أن ينحر فيه، والمحل بالكسر يطلق على المكان والزمان»[138]. وفي تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾[139] قال: «على أن اتقاء النار كناية عن الاحتراز من العناد، إذ بذلك يتحقق تسببه عنه وترتبه عليه، كأنه قيل فإذا عجزتم عن الإتيان بمثله كما المقرر فاحترزوا من إنكار كونه منزلاً من عند الله سبحانه، فإنه مستوجب للعقاب بالنار، لكن أوثر عليه الكناية المذكورة المبنية على تصوير العناد بصورة النار، وجعل الاتصاف به عين الملابسة بها للمبالغة في تهويل شأنه وتفظيع أمره وإظهار كمال العناية بتحذير المخاطبين منه، وحثهم على الجد في تحقيق المكنى عنه، وفيه من الإيجاز البديع ما لا يخفى»[140].

أما علم البديع فهو علم تعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية مطابقة الكلام لمقتضى الحال. ووجوه تحسين الكلام قسمان، قسم يرجع إلى المعنى (المحسنات المعنوية)، وقسم يرجع إلى اللفظ (المحسنات اللفظية)[141]. ومن المحسنات المعنوية:

الطبـــاق والمقـــابلة:

الطباق هو الجمع بين متضادين أي معنيين متقابلين في الجملة، بأن يكون بينهما تقابل وتناف ولو في بعض الصور، سواء كان التقابل حقيقياً أو اعتبارياً[142]. والطباق أنواع ثلاثة: طباق إيجاب، وسلب، وإيهام التضاد.

أما المقابلة فهي أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو أكثر، ثم يؤتى بما يقابل ذلك المذكور من المعنيين المتوافقين أو المعاني المتوافقة على الترتيب. والمراد بالتوافق خلاف التقابل، وقد تتركب المقابلة من طباق وملحق به[143].

---

(138) تفسير أبي السعود 1/ 243.
(139) سورة البقرة، الآية: 24.
(140) تفسير أبي السعود 1/ 87.
(141) معجم البلاغة العربية 1/ 71.
(142) المصدر نفسه 1/ 447.
(143) المصدر نفسه 2/ 684.

ذكر أبو السعود قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[144]. فقال: «عظيم على الناس قاطبة، أما أولئك فقد أحياهم ليعتبروا بما جرى عليهم فيفوزوا بالسعادة العظمى، وأما الذين سمعوا بقصتهم فقد هداهم إلى مسلك الاعتبار والاستبصار، ولكن أكثر الناس لا يشكرون فضله كما ينبغي، ويجوز أن يراد بالشكر الاعتبار والاستبصار وإظهار الناس في مقام الإضمار لمزيد التشنيع»[145].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾[146] قال: «إنكار من جهة الله تعالى لتسويتهم وإبطال للقياس لوقوعه في مقابلة النص»[147]. وذكر قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ﴾[148] فقال في المقابلة «خيرٌ لكم وهو جميع ما كُلِّفوه من الأمور الشاقة التي من جملتها القتال فإن النفوس تكرهه وتنفر عنه، والجملة اعتراضية دالة على أن في القتال خيراً لهم، وهو شر لكم وهو جميع ما نهوا عنه من الأمور المستلذة»[149].

المبـــالغة:

من المحسنات المعنوية، ويعرفها البلاغيون مطلقاً بأن يدعى لوصف بلوغه في الشدة أو الضعف حداً مستحيلاً أو مستبعداً، وتنحصر المبالغة عندهم في التبليغ والإغراق والغلو[150].

قال أبو السعود في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾[151] ما يلي

---

(144) سورة البقرة، الآية: 243.

(145) تفسير أبي السعود 1/ 276.

(146) سورة البقرة، الآية: 274.

(147) تفسير أبي السعود 1/ 308.

(148) سورة البقرة، الآية: 216.

(149) تفسير أبي السعود 1/ 253.

(150) معجم البلاغة العربية 1/ 102.

(151) سورة البقرة، الآية: 7.

«وإيثار الجملة الاسمية على الفعلية الموافقة لدعواهم المردودة للمبالغة في الرد بإفادة انتفاء الإيمان عنهم في جميع الأزمنة»[152]. وفي قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾[153] قال: «حالية والحال أنه مكروه طبعاً على أن الكره مصدر وصف به المفعول مبالغة»[154]. وفي قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾[155] قال شاكر أي مجازٍ على الطاعة عبَّر عن ذلك بالشكر مبالغة في الإحسان إلى العباد، عليم مبالغ في العلم بالأشياء»[156].

الالتفـات:

ومن المحسنات المعنوية الالتفات، ولعل الأصمعي (214هـ) أول من ذكره، وقد عَدَّ ابن المعتز الالتفات من محاسن الكلام وبديعه معرفه بقوله: «هو الظرف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار»[157].

ذكر أبو السعود قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾[158] فقال: «وتخصيص هذا القول بالذكر مع كون مقتضى الظاهر إيراده على منهاج ما قبله من الأقوال المحكية المتصلة به، للإيذان بأن ما في حيزه نعمة جليلة مستقلة حقيقية الذكر والتذكير على حيالها، والالتفات إلى التكلم لإظهار الجلالة وتربية المهابة»[159] وفي تفسير قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾[160] قال: «أي يطردهم ويبعدهم من رحمته، والالتفات إلى الغيبة بإظهار اسم الذات الجامع للصفات لتربية المهابة وإدخال الروعة»[161]. وفي تفسير قوله

---

(152) تفسير أبي السعود 1/ 48.
(153) سورة البقرة، الآية: 215.
(154) تفسير أبي السعود 1/ 253.
(155) سورة البقرة، الآية: 158.
(156) تفسير أبي السعود 1/ 215.
(157) علم البديع/ 135.
(158) سورة البقرة، الآية: 34.
(159) تفسير أبي السعود 1/ 109.
(160) سورة البقرة، الآية: 159.
(161) تفسير أبي السعود 1/ 216.

تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾[162] قال: «التفات إلى خطاب المذكورين مبني على إيراد ما عدد من قبائحهم السابقة لتزايد السخط الموجب للمشافهة بالتوبيخ والتقريع، والاستفهام إنكاري بمعنى إنكار الواقع»[163].

أسلوب الحكيم:

وهو من المحسنات المعنوية بأن تلقى المخاطب بغير ما يترقبه، إما بترك سؤاله والإجابة عن سؤال لم يسأله، وإما بحمل كلامه على غير ما كان يقصد إشارة إلى أنه كان ينبغي أن يسأل هذا السؤال»[164].

ذكر أبو السعود في تفسير قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾[165] ما يلي: «كانوا قد سألوه عليه الصلاة والسلام عن الحكمة في اختلاف حال القمر وتبدل أمره فأمره الله العزيز الحكيم أن يجيبهم بأن الحكمة الظاهرة في ذلك أن تكون معالم للناس في عبادتهم»[166].

التتميم:

من المحسنات المعنوية، وهو عبارة عن الإتيان في النظم والنثر بكلمة إذا طرحت من الكلام نقص حسنه ومعناه، ويأتي على ضربين: ضرب في المعنى، وضرب في الألفاظ[167]. وقد ذكر أبو السعود في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ﴾[168]. فقال: «أي حملته الأنفة وحميّة الجاهلية على الإثم، الذي نهي عنه لجاجاً وعناداً، فحسبه جهنم مبتدأ وخبر أي كافيه جهنم»[169].

---

(162) سورة البقرة، الآية: 28.
(163) تفسير أبي السعود 1/ 97.
(164) علم البديع/ 174.
(165) سورة البقرة، الآية: 189.
(166) تفسير أبي السعود 1/ 239.
(167) علم البديع/ 110.
(168) سورة البقرة، الآية: 205.
(169) تفسير أبي السعود 1/ 247.

الجنـــاس:

من المحسنات اللفظية، وهو تشابه اللفظين في النطق واختلافهما في المعنى. ومن الجناس ما هو تام، وما هو غير تام[170]. وقد ذكر أبو السعود في قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ﴾[171] ما نصه: «أي ولأتم نعمتي عليكم في أمر القبلة أو في الآخرة إتماماً كائناً كإتمام لها بإرسال رسول كائن منكم، فإن إرسال الرسول لاسيما المجانس لهم نعمة لا يكافئها نعمة قط»[172]. وفي قوله تعالى: ﴿وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾[173] قال: «أي الذين يتأتى منهم اللعن أي الدعاء عليهم باللعن من الملائكة ومؤمني الثقلين، والمراد بيان دوام اللعن واستمراره، وعليه يدور الاستثناء المتصل في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾»[174].

ونستخلص من هذه الرحلة مع أبي السعود في تفسيره: «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم» أن تطبيقاته البلاغية لنظرية النظم وما اشتملت عليه من علوم بلاغية، تندرج في ثناياها القيم الأسلوبية، التي اصطلح عليها الأسلوبيون اليوم ما يعرف بعلم الأسلوب. ودرسوا تحت هذا العلم موضوعات الدلالة والسياق وغيرهما.

وقد لاحظنا من خلال تتبعنا لتفسير آي الذكر الحكيم، واستقصائنا لفكر أبي السعود اللغوي، والنحويّ، والبلاغي، أنه أجاد في تطبيقاته للمفاهيم الأسلوبية على درجة منقطعة النظير تسجَّل له بالإجلال العلمي، لأنه كان ثاقب الفهم عميق الوعي للنظرية وتطبيقها. فضلاً عن دقته وتعمقه، وهو يتناول آيات القرآن الكريم، ومن ذلك «لا يعلمون الكتاب أي لا يعرفون التوراة ليطالعوها، وحمل الكتاب على الكتابة يأباه سياق النظم الكريم»[175] وكذلك «بيان أن

---

(170) معجم البلاغة العربية 1/ 100.
(171) سورة البقرة، الآية: 151.
(172) تفسير أبي السعود 1/ 212.
(173) سورة البقرة، الآية: 159.
(174) تفسير أبي السعود 1/ 216.
(175) المصدر نفسه/ 144.

الخلود في النار مختص بالكافر من سياق النظم الحكيم»[176] وكذلك «على تقدير جعل الاشتراء المذكور عبارة عن معاملتهم المحكية وهو الأنسب بتجاوب أطراف النظم الكريم»[177].

مستخلص البحث

قام الباحث بعرض موجز لنظرية النظم اقتضته طبيعة البحث بوصفه قاعدة أساسية للدراسة التطبيقية عند أبي السعود العمادي. وقد عرض الباحث فكر أبي السعود في منهجه التحليلي وتطبيقاته البلاغية للعلوم الثلاثة: المعاني، والبيان، والبديع.

فقد درس منهجه وتطبيقاته في موضوعات الأسلوب الخبري، وأحوال الإسناد، وأسلوب القصر، والأساليب الإنشائية، ومفهوم الفصل والوصل، ومسائل الإيجاز والإطناب

ثم تناول البحث التحليلات العميقة التي عرضها أبو السعود في مباحث البيان: التشبيه، والمجاز، والاستعارة، والكناية. محللاً فكر أبي السعود ومبيناً إبداعه في المجال التطبيقي.

ثم وقف الباحث على أهم الفنون البديعية التي درسها وحلّلها في آي الذكر الحكيم. ولاحظ الباحث أن هذه الفنون ليست مجرد محسنات عارضة وإنما هي في جوهر الدلالات التركيبية والإفرادية وفي صميم السياق اللغوي.

---

(176) المصدر نفسه/ 147.

(177) المصدر نفسه/ 59.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- أثر القراءات القرآنية في تطور الدرس اللغوي، د. عفيف دمشقية ـ طرابلس: معهد الإنماء العربي، د.ت.
- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تح محمد عبد المنعم خفاجي وعبد العزيز شرف. بيروت: دار الجيل، 1991ف.
- إعجاز القرآن، أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تح عماد الدين أحمد حيدر ـ بيروت: المكتبة الثقافية، 1991ف.
- البلاغة تطور وتاريخ، د. شوقي ضيف ـ القاهرة: مكتبة المعارف، د.ت.
- البلاغة العربية ج1، بكري شيخ أمين. ـ بيروت: دار المعارف، 1982ف.
- التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، حمادي صمود. ـ تونس: الجامعة التونسية، 1981ف.
- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.
- جامع البيان في تفسير القرآن، محمد بن جرير الطبري (310هـ). ـ بيروت: دار الجيل، د.ت.
- الحيوان، الجاحظ، تح عبد السلام هارون. ـ القاهرة، دن، 1979ف.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تح محمود محمد شاكر. ـ القاهرة: دار المدني، 1992ف.
- رسائل الجاحظ، الجاحظ، تح عبد السلام هارون. ـ بيروت: دار الجيل، 1991ف.
- علم البديع، د. عبد العزيز عتيق. ـ بيروت: دار النهضة، 1984ف.
- علم البيان، د. عبد العزيز عتيق. ـ بيروت: دار النهضة، 1985ف.
- في تاريخ البلاغة العربية، د. عبد العزيز عتيق. ـ بيروت: دار النهضة، دت.
- الكامل، المبرد (ت285هـ). ـ بيروت: مكتبة المعارف، د.ت.
- كتاب الصناعتين، أبي هلال العسكري تح علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل. ـ بيروت: المكتبة العصرية، 1986ف.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن

عمر الزمشخري (ت538هـ) تح مصطفى حسين أحمد. ـ بيروت: دار الكتاب العربي، 1987ف.
ـ مجاز القرآن، معمر بن المثنى. ـ القاهرة: مطبعة الخانجي، دت.
ـ المختصر في تاريخ البلاغة العربية، د. عبد القادر حسين. ـ بيروت: دار الشروق، 1992ف.
ـ معاني القرآن، الفراء. ـ القاهرة: دار الكتب، د.ت.
ـ معجم البلاغة العربية، د. بدوي طبانة. ـ طرابلس: جامعة طرابلس 1975ف.
ـ مفاتيح الغيب، الرازي. ـ بيروت: دار الفكر، د.ت.
ـ مفتاح العلوم، يوسف بن أبي بكر محمد (ت 626هـ) ضبط نعيم زرزور. ـ بيروت: دار الكتب العلمية، 1987ف.
ـ منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه، د. مصطفى الصاوي الجويني. ـ مصر: دار المعارف، د.ت.
ـ النحو وكتب التفسير ج1،د. إبراهيم عبد اللّه رفيدة. ـ طرابلس: الدار الجماهيرية، 1984ف.